النشاط البحري خلال عصر الأغالبة

(184-296هـ/800- 908م)

الطالب: علي موسى طالب إشراف د. بسام علوش.

جامعة البعث/ دكتوراه تاريخ العرب والإسلام.

ملخص

من المعلوم أن اتخاذ العباسيين لمدينة بغداد عاصمة لهم على نهر دجلة، شجع الحركات الانفصالية في بلاد المغرب العربي الإسلامي، وحاولوا الاستقلال بشؤونهم عن دولة الخلافة، والانفصال نهائياً عن السلطة في بغداد، مع الاعتراف بها اسمياً، تجسدت تلك المحاولات في قيام دولة الأغالبة في إفريقية (المغرب الأدنى)، التي عُدّت نموذجاً لتلك السياسة الانفصالية زمن العباسيين.

وترتب على نشوء الدولة الأغلبية في تونس قيام نشاط بحري قوي، كونهم عمدوا إلى تدعيم مركزهم البحري من خلال الاهتمام ببناء الأسطول البحري الذي يعد العمود الفقري لأي دولة تسعى للاحتفاظ بهيبتها في تلك الجهات البحرية لحماية سواحلهم من غزوات الروم البحرية، على العكس من الخلافة العباسية التي اتبعت سياسة مشرقية، ونفضت يدها من مشاكل البحر الأبيض المتوسط.

واستطاعت دولة الأغالبة أن تكسر التفوق البيزنطي في حوض البحر الأبيض المتوسط، إذ برهنت على القدرة في المنافسة، وقلبت كفة الميزان لصالح القوة العربية الإسلامية تجسد ذلك بالفتوحات والغزوات البحرية التي قاموا بها في حوض البحر المتوسط الأوسط والغربي.

كما امتدت فتوحاتهم حتى بلاد أوروبا ومناطق جنوب إيطاليا، وهذا الأمر ساعد على فرض وجودهم كقوة بحرية لها تأثيرها في المنطقة، مما ساعد الفاطميين فيما بعد على الاستمرار في السياسة البحرية المتبعة، إذ ورثت ما كان لهم من فاعلية وهيمنة على شواطئ البحر المتوسط.

الكلمات المفتاحية: النشاط البحري، الأغالبة، الأسطول الأغلبي، التنظيمات البحرية، فتوحات الأغالبة، غزوات الأغالبة.

abstract

It is well known that the Abbasids' taking of the city of Baghdad as their capital on the Tigris River encouraged separatist movements in the countries of the Islamic Maghreb, and they tried to be independent in their affairs from the caliphate state and finally separate from the authority in Baghdad while recognizing it nominally. Which was considered a model for that separatist policy during the Abbasids.

The emergence of the majority state in Tunisia resulted in a strong maritime activity, as they sought to strengthen their maritime position by caring about building the naval fleet, which is the backbone of any country seeking to maintain its prestige in those maritime regions to protect their coasts from the Roman naval invasions, in contrast to the Abbasid caliphate, which It followed an Levantine policy and removed its hand from the problems of the Mediterranean. The Aghaleba state was able to break the Byzantine supremacy in the Mediterranean basin, as it demonstrated the ability to compete and tipped the balance in favor of the Arab Islamic power. This was embodied in the conquests and naval invasions that they made in the central and western Mediterranean.

Their conquests also extended to the countries of Europe and the regions of southern Italy, and this matter helped to impose their presence as a naval force that had an influence in the region, which later helped the Fatimids to continue their maritime policy, as it inherited their effectiveness and dominance on the shores of the Mediterranean.

Keywords: maritime activity, the Aghlabid fleet, the Aghlabid fleet, naval organizations, the Aghlabid conquests, the Aghlabid invasions.

مقدمة.

مما لا شك فيه أن البحرية الإسلامية في بلاد الغرب الإسلامي (المغرب العربي والأندلس) لم تنشأ دفعة واحدة، ولم تكن وليدة العصر الذي ظهرت فيه على المسرح التاريخي بقوتها وأهميتها الكبرى، بل إن جذورها تمتد إلى مرحلة مبكرة من التاريخ الإسلامي. إذ تعود إلى بدايات الفتح العربي الإسلامي المنظم لبلاد المغرب ودخول القبائل البربرية في الإسلام، على أن دراسة البحرية العربية الإسلامية خلال عصر الأغالبة تعد من الموضوعات المهمة في تاريخ البحرية العربية الإسلامية، كونها شكلت انطلاقة فاعلة حققت السيطرة والهيمنة على البحر الأبيض المتوسط وجزره، وكسرت حاجز التفوق البيزنطي على مياه البحر المتوسط.

1- إشكالية البحث وأهميته.

تكمن إشكالية البحث في بيان وتوضيح الدور الذي أسهمت به البحرية العربية الإسلامية خلال عصر الأغالبة في تثبيت الحكم العربي الإسلامي في القرنين الأول والثاني الهجريين/السابع والثامن الميلاديين، وبيان مبلغ أثرها في الأحداث التاريخية.

وتضاف إشكالية غاية في الأهمية وهي: محاولة تسليط الضوء على علاقة الأغالبة مع الممالك النصرانية في أوروبا في ذلك الوقت، وما ساد هذا الواقع من حملات بحرية وعمليات قرصنة وحروب بحرية من كلا الجانبين.

كما تعد دراسة النشاط البحري في عصر الأغالبة من الموضوعات المهمة، لما كان للبحرية من دور كبير في فتح جزر حوض البحر المتوسط الأوسط والغربي، وبالتالي ورثت عن البحرية البيزنطية السيطرة على البحر المتوسط من الناحيتين العسكرية والتجارية.

2- أهداف البحث.

تبرز أهمية البحث كونه إحدى المحاولات التي يراد من خلالها إيضاح أهمية النشاط البحري العربي الإسلامي العسكري في خلال عصر الأغالبة، والتعريف بالغزوات البحرية والأعمال العسكرية التي قاموا بها والتي حققت لهم السيادة على البحر المتوسط بعد أن كانت حكراً على بيزنطة.

كما يرى الباحث أن في دراسة النشاط البحري وأثره أهمية كبيرة، ومنفعة عظيمة، لأن أغلب الدراسات اتسمت في معظمها بطابع التجسيد والوصف للواقع السياسي والاجتماعي للأمة العربية الإسلامية، وتأتي هذه الدراسة في سبيل إلقاء الضوء على النشاط البحري العسكري، كونه أحد روافد الحضارة وعنصراً أساسياً من عناصرها.

3- صعوبات البحث:

لكل عمل علمي مهما كان نوعه، وطريقة بحثه صعوبات متعددة أهمها:

- كثافة الأفكار التي يستقيها البحث.
- الكثير من الدراسات التي تناولت دراسة النشاط البحري في العصر الإسلامي كانت دراسة عامة أي ترد ضمن السياق التاريخي للحدث، وهذا ما فرض جمع المعلومات من المراجع التي توفرت والتي كانت ذات دراسة تاريخية سياسية أو عسكرية.
- أغلب المراجع التي تناولت مواضيع النشاط البحري في بلاد المغرب العربي الإسلامي كانت عامة وشاملة، وتناولت بصفة عامة فتوحات الأغالبة لجزيرة صقلية دون الخوض في تفاصيل الأحداث التالية.

4- منهجية البحث:

بهدف الوصول إلى نتائج قيّمة ودقيقة، قام البحث على دراسة عدة أمور والتطرق لها في محاولة لإلقاء الضوء على عدة نواحي عني البحث بها من خلال ما جاء في المصادر والمراجع، معتمداً منهج بحثي تجسد بدراسة وصفية تاريخية **(المنهج الوصفي)**

من أجل إلقاء الضوء على البحرية العربية الإسلامية والنشاط البحري العسكري الذي كان سائداً في المرحلة التي هي موضع الدراسة.

5- عرض البحث والمناقشة والتحليل:

أولاً- الأسطول البحري الأغلبي والتنظيمات البحرية:

1- الأسطول البحري الأغلبي:

يلاحظ أن الدولة العباسية أهملت خلال القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي الناحية البحرية في قوتها العسكرية، واحتذت حذوها الإمبراطورية البيزنطية، وهذا الأمر مكن أصحاب الحركات الاستقلالية في بلاد المغرب العربي الإسلامي من اقتناص تلك الفرصة، إذ قامت دولة الأغالبة[1] بعد إعلان استقلالها الذاتي عن الخلافة العباسية بالاهتمام بالشؤون البحرية مستفيدة من الأوضاع المضطربة التي مرت بها الإمبراطورية البيزنطية بسبب الثورات الداخلية[2]، والتفاتها إلى محاولة الدفاع على أراضيها وشواطئها من هجمات العباسيين التي طالت القسطنطينية من جهة، وجزر وشواطئ أسيا الصغرى من جهة أخرى[3]، ولما أراد الأغالبة الوقوف في وجه الإمبراطورية البيزنطية التي

([1]) (184-296هـ/800-908م) قامت دولة الأغالبة في أفريقية، وهي أولى دول المغرب العربي الإسلامي إسهاماً في العلاقات الدولية، عبرت عن شخصية المغرب الإسلامي عقب التغييرات السياسية والاجتماعية التي أحدثها الفتح العربي الإسلامي، تطلعوا إلى عالم البحر الأبيض المتوسط ودانت لهم بعض جزره، هبطت جيوشهم إلى جنوب إيطاليا لنشر الإسلام ودخلوا ميدان الصراع الدولي، وأصبحت عاصمتهم القيروان من أكبر المراكز السياسة الكبرى في عالم البحر المتوسط. **إسماعيل، محمود: الأغالبة (184-296هـ) سياستهم الخارجية**، عين للدارسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط:3، مصر، 2000م، ص7.

([2]) **سالم**، عبد العزيز وأحمد مختار العبادي: **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1969م، ص47. **العدوي**، إبراهيم أحمد: **الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط**، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر، (د.ت)، ص76.

([3]) **لويس**، أرشيبالد: **القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط**، تر: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص171.

ضعفت قوتها وأهملت شؤون البحر المتوسط، اهتموا بشؤون البحر وعملوا على بناء أسطول قوي يكفل لهم تحقيق أهدافهم، ساعدهم في ذلك وفرة المواد اللازمة لصناعة الأسطول من الخشب والألياف وغيرها من المواد التي وهبتها لهم طبيعة البلاد التي قاموا بها، هذا الأمر مكنهم من بناء عدد من دور صناعة السفن على امتداد سواحل بلادهم[1]، والدليل فيما يلي:

في عصرهم (184-296هـ/800-908م)[2] ومنذ بداية عهد **زيادة الله الأول الأغلبي** (201-223هـ/817-838م)[3]، أنشأت العديد من دور صناعة السفن؛ إذ كانت دار الصناعة **بتونس**[4] تنتج السفن بكثرة مما ساعد على الاستيلاء على صقلية فيما بعد، وسبب زيادة الاهتمام بهذا المعقل المهم من معاقل البحر الأبيض المتوسط أن توجههم البحري فرض عليهم العناية بالقواعد البحرية، وتطويرها، وزيادة عددها، كما أن في صقلية وجد ما يحتاج إليه المسلمون من مواد أولية لازمة لصناعة السفن، إذ توافرت كميات وفيرة من الأخشاب، وبعض أنواع الحديد[5].

([1]) **نوح**، فوزية محمد عبد الحميد: **البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة 184-296هـ/800-908م**، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، السعودية، 1405هـ/1985م، ص65.

([2]) **مارسيه**، جورج: **بلاد المغرب وعلاقتها ببلاد المشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، تر: محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف بالإسكندرية، الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص48.

([3]) صاحب إفريقية لقبه "أبو محمد"، أول من لقب "زيادة الله" ممن ولي من بني الأغلب، تولى إمارة دولة الأغالبة سنة 201هـ/816م عند وفاة أخيه أبي العباس عبد الله بن إبراهيم، فأساء السيرة في الجند وسفك الدماء، وفي عهده بعث أسد بن الفرات على رأس الحملة إلى صقلية، وتوفي سنة 223هـ/837م. **ابن الأثير**، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد (ت630هـ/1233م): **الكامل في التاريخ**، تح: أبي فداء عبد الله القاضي، الأجزاء:12، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م، ج:5، ص433. **ابن عذاري**، أبي العباس أحمد بن محمد (ت712هـ/1313م): **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تح: بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط:1، تونس، 1434هـ/2013م، ج:1، ص136.

([4]) **طه**، عبد الواحد ذنون، وآخرون: **تاريخ المغرب العربي**، دار المدار، ط:1، بيروت، لبنان، 2004م، ص107.

([5]) **الحميري**: **الروض المعطار**، ص336. **العدوي**: **الأساطيل العربية**، ص142.

ووجدت دار للصناعة في منطقة **سوسة**[1]، وهي دار الصناعة الثانية التي أوجدها الأغالبة في عهد **زيادة الله الأغلبي** إذ قام بإنشائها سنة 206هـ/821م، ثم وسعها بعد أن ازداد حجم الأسطول، وكانت التوسعة باتجاه المقبرة المجاورة لدار الصناعة[2].

ويلاحظ من الوصف الذي قدمه ياقوت الحموي أهمية هذه المنطقة في جعلها قاعدة بحرية وإنشاء دار للصناعة فيها، إذ قال: "وهي مدينة قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح، من الشمال والجنوب والشرق، وسورها صخر حصين منيع يضرب فيه البحر، وبها منار يعرف بمنار خلف الفتى، ولها ثمانية أبواب"[3]، ويعرف الباب الشرقي بباب دار الصناعة حيث تدخل منه المراكب وتخرج، وأشار البكري إلى وجود دار الصناعة بقوله: "وداخلها محرس عظيم يسمى محرس القصب وهو متصل بدار الصناعة"[4].

وأصدق دليل على أهمية دار الصناعة في سوسة، خروج الحملة الشهيرة منها بقيادة **أسد بن الفرات**[5] غازياً من أجل الاستيلاء على صقلية، وكان قوامها 70 سفينة، ثم

([1]) **الحموي**، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1229م): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، لبنان، 1397هـ/1977م ، مج:3، ص282.

([2]) **جلول**، ناجي: **الرباطات البحرية بأفريقية في العصر الوسيط**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1999م، ص74.

([3]) **الحموي: معجم البلدان**، مج:3، ص282.

([4]) **البكري**، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت487هـ/1095م): **المسالك والممالك**، تح: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1424هـ/2003م، ج:2، ص208.

([5]) أبو عبد الله بن سنان مولى بني سليم (142-213هـ/759-828م)، قاضي القيروان وأحد القادة الفاتحين، أصله من خراسان، ولد بحران 142هـ/759م، نشأ بالقيروان ثم بتونس، ورحل إلى المشرق في طلب الحديث، سمع الموطأ من الإمام مالك، ورحل إلى العراق فلقي بها أصحاب أبي حنيفة بن النعمان، ثم رحل إلى تونس، وأدخل المذهب المالكي إلى إفريقية، كما أنه دخل صقلية فاتحاً سنة 212هـ/828م. **التميمي**، محمد بن أحمد بن تميم (ت333هـ/945م): **طبقات علماء أفريقية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ت)، ص81-82.

أرسل الأمير تعزيزات بلغت 300 سفينة، فهذا العدد الكبير من السفن يؤكد على مدى اهتمام الأغالبة بالبحرية ودور الصناعة[1].

كما وجدت دار للصناعة في **طرابلس الغرب**، إذ كانت نقطة انطلاق الأسطول الإسلامي الأغلبي إلى جزيرة مالطة، فتم فتحها سنة 256هـ/869م، وبعد أن افتتح المسلمون جزيرة مالطة أنشأوا فيها داراً لصناعة السفن من أشجار الصنوبر التي تكثر بها، وبالتالي أصبحت من أهم قواعد الأسطول الأغلبي في البحر الأبيض المتوسط، وفي **مسينا**[2] في جزيرة صقلية، ويضاف إلى ذلك دار الصناعة الخامسة التي أقاموها الأغالبة في جزيرة **مالطة**، ودار الصناعة في جزيرة **قوصرة** أيضاً[3].

وكانت دور الصناعة معامل عظيمة وجد فيها عدد عظيم من أهل الدراية والمشتغلين في صناعة السفن[4]، فالقول بأن: "الأسطول الأغلبي من أعظم الأساطيل الإسلامية، ناهيك على أنه فتح صقلية، وقلورية[5]، وسردانية، وقوصرة، ومالطة، واكتسح إقريطش وشطوط إيطاليا، وفرنسا، ونازل الأسطول الرومي وانتصر عليه، وحمى ذمار المملكة الإفريقية"[6]. يؤكد على مقدار القوة والتنظيم التي وصل إليها الأسطول الأغلبي.

([1]) **الخربوطلي**، علي حسني: **الإسلام في حوض البحر المتوسط**، دار العلم للملايين، ط:1، بيروت، لبنان، 1970م، ص85.

([2]) إحدى مدن الساحل الصقلي، لها أهميتها البحرية سواءً حربية أم تجارية، من أهم القواعد لبحرية الأغالبة وبها دار لصناعة السفن إذ مدت المسلمين بالسفن اللازمة للأسطول العربي الإسلامي، وصفها الحميري: "وهي إحدى قواعدها –صقلية– والسفر منها وإليها قصداً، وهي دار إنشاء، وبها حط وإقلاع. **الحميري: الروض المعطار**، ص559.

([3]) **نوح: البحرية الإسلامية**، ص3.

([4]) **الحموي**، محمد ياسين: **تاريخ الأسطول العربي**، مطبعة الترقي، سوريا، دمشق، (د.ت)، 1364هـ/1945م، ص125.

([5]) هي جزيرة شرقي صقلية، أهلها من الإفرنج، ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة، أما الحميري فذكر أن قلورية مدينة بجزيرة صقلية وأن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب لما غزا صقلية حاصر هذه المدينة، فقتل وسبى، فهربوا منه. **الحموي: معجم البلدان**، مج:4، ص392.

([6]) **زيدان**، جرجي: **تاريخ التمدن الإسلامي**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج:1، ص209. ص209.

2- التنظيمات البحرية في عصر الأغالبة:

فيما يخص **التنظيمات البحرية في عصر الأغالبة** فكانت تنظيمات مدروسة ومحكمة، إذ كان الأسطول الأغلبي من أعظم الأساطيل العربية الإسلامية، وكانت دور الصناعة تجهد نفسها في العمل المستمر لإنشاء السفن، ومقدم الأسطول الأغلبي من رجال الدولة وأركانها، وهو بمثابة وزير البحر، فالأسطول الأغلبي على غاية ما يرام من النظام، ويشمل جملة قطع مختلفة الشكل لاختلاف الغايات[1].

كما قدم ابن خلدون وصفاً دقيقاً لوظيفة قواد الأساطيل في المغرب العربي الإسلامي بقوله: "وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد النوتية يدبر أمر حربه، وسلاحه ومقاتلته، ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف، وأمر إرسائه في مرافئه، فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل، أو غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم، وشحنها السلطان برجاله، وأنجاد عسكره، ومواليه، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه ثم يسرحهم لوجههم، وينتظر إيابهم بالفتح والغنيمة". وأضاف بأنها: "من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وإفريقية، ويسمى صاحبها الملند –بتفخيم اللام– منقولاً من لغة الإفرنجة، فإنه اسمها في اصطلاح لغتهم، وإنما اختصت هذه الرتبة بملك إفريقية والمغرب لأنهما جميعاً على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة إلى الإسكندرية إلى الشام"[2].

وكان الأمراء الأغالبة يهتمون ببناء الحصون والمحارس على ساحل البحر، حتى شغلت روح المرابطة والجهاد قبائل بأسرها، فبلغ عدد أربطة سبتة في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ما يقارب سبعاً وأربعين ما بين زاوية ورباط محاذية للبحر من

([1]) **الحموي: تاريخ الأسطول العربي**، ص48–125.

([2]) **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت808هـ/1405م): **المقدمة**– من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (د.ت)، ص210.

جانبي الشمال والجنوب، بينما بلغ عدد المحارس ثمانية عشر محرساً في ذلك الوقت[1]، وخير دليل على مدى اهتمام الأغالبة بذلك أنه في ولاية **أحمد بن محمد بن الأغلب** (242-249هـ/856-863م) بنى عشرة آلاف قلعة من الحجر الصخر بأبواب من حديد[2]. وفي ولاية **ابراهيم بن أحمد بن الأغلب** (261-289هـ/874-902م)، قام ببناء الحصون والمحارس على طول الشريط الساحلي، فكان يوقد النار من سبتة فيصل الخبر إلى الإسكندرية في الليلة الواحدة[3].

ومن الحصون والمحارس التي كانت في عهد الأغالبة في الشمال الأفريقي محرس بطوية ومحرس الريحانة[4]، كذلك حصن ينقة، وغيرها من الحصون والرباط بين سبتة وطنجة، وسلا والرباط وغيرها[5]، وبعد أن أصبحت الصورة واضحة وجلية عن مدى التنظيم والاهتمام بالأسطول زمن الأغالبة، بقي التوجه لمعرفة السياسة البحرية العسكرية المتبعة كونه عملاً متمماً لسيادة العرب البحرية على البحر الأبيض المتوسط.

ثانياً- النشاط البحري العسكري للأغالبة:

1- محاولات فتح جزيرة سردانية:

تطور الأسطول الأغلبي في عهد زيادة الله بن الأغلب (201-223هـ/817-838م)، وقام بنشاط بحري كبير، تمثل بالغزوات البحرية الإسلامية على جزر البحر المتوسط، إذ قام الأغالبة بالغارات على جزيرة سردانية بين 194-198هـ/809-813م[6]، أي في مرحلة الاستفاقة وبعث النشاط البحري، بالرغم من أنهم كانوا على اتفاق مدته عشر سنوات مع بطريق صقلية عام 198هـ/813م، ولكن هذه الغارات كانت

([1]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص43.

([2]) يبدو واضحاً أن هذا الرقم مبالغ فيه، ومع ذلك استفاد المسلمون من الحصون والأبراج التي كانت منتشرة في المنطقة، واستخدموها للأغراض الدفاعية، مثل طبنة، وبجاية، وبلزمة، وجلولاء وغيرها.

([3]) **ابن الأثير: الكامل في التاريخ**، ج:6، ص256.

([4]) **البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص292.

([5]) **العدوي: الأساطيل العربية**، ص295.

([6]) **الخربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط**، ص72.

فاشلة وخسر المسلمون في الغارة الأخيرة مائة سفينة أغرقتها لهم العواصف قرب الجزيرة[1]، وتوقفت الغزوات عليها حتى سنة 201هـ/816م، إذ أرسل سرية من سرايا الأسطول الأغلبي غزت جزيرة سردانية، وكانت تابعة للروم البيزنطيين، فغنموا وقتلوا عدداً من جنودهم[2] ثم قام البيزنطيون بتعمير الجزيرة وتحصينها بالقلاع[3].

ولما حصل الأغالبة في هذه الغزوة على غنائم كثيرة اندفع في نفوسهم الحماس، فقاموا بتكرار هجومهم عام 206هـ/821م[4]، إذ توجه القائد محمد بن عبد الله التميمي، إلا أنه لم يتمكن من فتحها، والدليل فيما رواه ابن عذاري: "غزا المسلمون سردانية، وعليهم محمد بن عبد الله التميمي، فأصابوا، وأصيب منهم، ثم قفلوا"[5]. إذاً عودتهم من الغزوة دليل على أنه لم يتمكن من فتحها، والاستقرار فيها، لكن يذكر أنه تم فتحها من قبل البحارة الأندلسيون في عهد **عبد الرحمن بن الحكم** (206-238هـ/822-852م)[6].

([1]) **نوح: البحرية الإسلامية**، ص287.

([2]) **العزواي**، نبراس تركي هادي حسين: **التوغل العسكري الإسلامي في الغرب الأوروبي (ق2-5هـ/8-11م)**، كلية التربية، جامعة بغداد، العراق، 2014م، ص286.

([3]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص165. **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص123.

([4]) ذكر شكيب أرسلان أن الغزوة حصلت في سنة 822/207م. **أرسلان**، شكيب: **تاريخ غزوات العرب العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص297.

([5]) **ابن عذاري: البيان المغرب**، ج:1، ص137.

([6]) **الحميري: الروض المعطار**، ص314.

2- فتح جزيرة قوصرة[1]:

لا ريب أن المسلمين حاولوا فتح جزيرة قوصرة، وأرسلوا الحملات البحرية بعد أن تم تأسيس أول دار لصناعة السفن في تونس، إذ تنبهوا إلى أهمية الجزيرة وأنها مكمن للصقليين للقيام بغزو إفريقية[2]، ولا يستبعد أن يكون السبب في توجيه الحملات إليها هو سبب اقتصادي، كون جزيرة قوصرة غنية بالأخشاب اللازمة لصناعة السفن، وبالتالي أرادوا الاستفادة من أجل إمداد دار الصناعة في تونس، وعليه تم إرسال عبد الملك بن قطن الفهري[3] سنة 88هـ/707م، ففتح الجزيرة[4] بعد أن تم تدمير القواعد البحرية فيها، فيها، لكن الروم البيزنطيين عملوا جاهدين على استعادتها فتم لهم ذلك، لاسيما أنها تقترب من جزيرة صقلية أهم قاعدة لأسطولهم في غرب البحر المتوسط، وتكررت محاولات العرب لانتزاعها، فغزوها في 118هـ/736م على يد حبيب بن أبي عبدة، لضمها نهائياً إلى سلطان العرب المسلمين، وجعلها قاعدة بحرية لهم، والخوف من أن تهاجم القوات الرومية أراضي إفريقية وشواطئها، فتمكنوا من انتزاعها نهائياً من أيدي الروم البيزنطيين سنة 130هـ/748م، في ولاية الأمير عبد الرحمن بن حبيب الفهري

([1]) اسم يوناني معناه السلة أو السفط أو الزنبيل، وكأن الاسم أطلق عليها للمشابهة فيما بين صورة تلك الجزيرة وبين تلك الأداة، ومن غريب الاتفاق أن الكلمة في اللغة العربية لها المعنى نفسه، وهي جزيرة في البحر الأبيض المتوسط تقع جنوب صقلية قبالة الساحل التونسي إلى الشرق من جزيرة مليطمة، بين تونس وصقلية، **الحميري: الروض المعطار**، ص485.

([2]) **فازيليف: العرب والروم**، تر: محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص3.

([3]) عبد الملك بن قطن بن نفيل بن عبد الله الفهري، تولى ولاية الأندلس الأولى منذ سنة (114هـ/732م) والثانية (122هـ/739م)، وقتل على يد أصحاب بلج بن بشر (132هـ/740م). **الزركلي**، خير الدين: **الأعلام**– قاموس تراجم، الأجزاء: 8، دار العلم للملايين، ط:15، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج4، ص162.

([4]) **أحمد: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، ص11.

عندما أرسل حملة بحرية سيطرت عليها تماماً، قبل فتح جزيرة صقلية بثلاثة أرباع القرن [1].

ومما يجب ذكره أن استيلاء المسلمين على جزيرة قوصرة سنة 130هـ/748م، كان له أثراً كبيراً على سياسة المسلمين البحرية تجاه صقلية في العصر العباسي، لاسيما في عهد الأغالبة الذين اتخذوها قاعدة من أجل شن الغارات البحرية بقصد السيطرة على جزيرة صقلية، وبعث نشاط عربي بحري في غرب البحر الأبيض المتوسط، إذ ساعدت المسلمين بموقعها المنيع على الاحتماء بقلعتها والتحصن بموقعها المنيع[2].

هذه الحملات والغزوات البحرية العربية الإسلامية إلى جزيرة قوصرة كانت سالفة لظهور دولة الأغالبة، وفي عهدهم قاموا أيضاً بإرسال غزواتهم إليها، فكيف تم ذلك والمعلوم أن الجزيرة كانت بيد المسلمين منذ عام 130هـ/748م؟

بيان ذلك ما ذكره ابن خلدون بقوله: "ومنها كان فتح صقلية في أيام زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات، وفتح **قوصرة** أيضاً في أيامه"[3]، وهذا دليل على قيام الأغالبة بعمل بحري جهادي فيما يخص جزيرة قوصرة، على الرغم من سكوت المصادر عن ذكر هذا العمل، ويؤيد ذلك قول أرشيبالد لويس: "وسرعان ما قوي شأن هذه القاعدة البحرية بفضل ما استجد من تطورات كان أولها استيلاء أسطول الأغالبة على جزيرة قوصرة 221هـ/835م"[4].

وهنا يجب التوضيح أن الجزيرة بعد فتحها عام 130هـ/748م عادت إلى الروم البيزنطيين، ومن ثم قام الأغالبة باسترجاعها عام 221هـ/835م، واتخذوها قاعدة للعمل البحري ضد صقلية التي لم تكن فتحت بالكامل، ومناطق جنوب إيطاليا، وزال بالاستيلاء

([1]) **طرخان**، إبراهيم علي: **المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى**، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر، 1966م، ص98.

([2]) **العدوي: الأساطيل العربية** ص74.

([3]) **ابن خلدون: المقدمة**، ص211.

([4]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص213.

على هذه الجزيرة الخطر الذي هدد المواصلات بين كل من صقلية وإفريقية عندما كانت قوصرة بيد بيزنطة، وأصبح وصول الإمدادات أسهل بكثير من ذي قبل[1].

3- فتح جزيرة صقلية:

بقي بنو الأغلب يتوارثون الإمارة على تونس (إفريقية) بتفويض من الخلفاء العباسيين في بغداد، وأرسلوا السرايا والأساطيل إلى صقلية تباعاً، حتى فتحها أسد بن الفرات في إمارة **زيادة الله الأول بن الأغلب** سنة 212هـ/827م، وجعلوا عليها ولاةً من قبلهم، حتى خرج عليهم العلويون من المغرب وأزالوا ملكهم، واستولوا على صقلية فيما استولوا عليه، وصاروا يرسلون ولاتهم إليها ويعززونها بالأساطيل، إذاً تم فتح الجزيرة في عصر الأغالبة، وبرهان ذلك أنَّ زحف الأسطول الأغلبي لفتح الجزيرة أصبح ميسراً منذ أن تم الاستيلاء على جزيرة قوصرة، إذ أصبحت قاعدة لهم، كما أن دعوة الثائر يوفيميوس ساهمت في سرعة اتخاذ القرار، لا سيما بعد أن أصبح المسلمين في حلٍّ من الهدنة التي ثبت لديهم نقضها من قبل الروم البيزنطيين[2].

وهنا أعدَّ زيادة الله الأول سنة 212هـ/827م أسطولاً كبيراً، عهد بقيادته إلى القاضي **أسد بن الفرات** لفتح الجزيرة، إذ ولاه إمرة الجيش مع الاحتفاظ بالقضاء فكان قاضياً وأميراً في آن معاً، ولم تجتمع الإمرة والقضاء من قبل لأحد في إفريقية إلا لأسد بن الفرات، وتذرعوا بمساعدة يوفيميوس الوالي الثائر على إمبراطور الروم، كما أبلغ يوفيموس بالتوجه إلى سوسة، والانتظار ريثما يتم تجهيز الأسطول[3]، وبالرغم من قلة المعلومات الواردة في المصادر عن حجم وقوة بحرية الأغالبة، ثمة اتفاق على خروج الأسطول

([1]) **نوح: البحرية الإسلامية**، ص140.

([2]) **مارسيه: بلاد المغرب وعلاقتها ببلاد المشرق**، ص72.

([3]) **الدباغ**، عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله (ت699هـ/1299م): **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تح: عبد المجيد الخيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ج:2، ص12.

الأغلبي بنحو **عشرة آلاف** مقاتل راجل و**سبعمائة** فارس من ميناء **سوسة**[1]، بعضهم من الفرس الخراسانيين، والبعض الآخر من الأفارقة ومن الأندلسيين المقيمين في إفريقية، في مراكب وصل عددها إلى مئة مركب عدا المراكب التي قدمها الثائر يوفيميوس، وقيل سبعين سفينة فقط[2]. وهنا بدأت مرحلة الفتح المنظم للجزيرة، إذ انطلقوا من سوسة 15 ربيع الأول سنة 212هـ/14 يونيو عام 827م، بحضور أهل العلم وعدد كبير من الأهالي، بعد أن احتفل الأمير زيادة الله بن إبراهيم بذلك الحشد، فأمر أن لا يبقى أحد إلا ويخرج من أجل مناصرة وتشييع الجيش[3].

وصل الأسطول إلى أقرب نقطة بالنسبة لتونس وهي **مازر**[4] على شاطئ صقلية الجنوبي بعد ثلاثة أيام من الانطلاق، ولم يحدث اشتباك مع الروم أثناء إقامتهم في مازر[5]، سوى لقائهم مع سرية واحدة تمكن المسلمون من أسرها وتبين أنهم من أنصار فيمي، عندها أمر أسد بن الفرات بفصل جيش فيمي عنهم، ثم بدأوا بالتقدم من أجل ملاقاة بلاطة عدو فيمي، ومروا بعدة مناطق، حتى وصلوا إلى أرض يقال لها **بلاطة** نسبةً إليه، فجرى اشتباك عنيف مع قوات بلاطة البالغة 150 ألف مقاتل، انتصر فيه المسلمون وقتلوا من أصحابه خلقاً كثيراً، فانسحب بلاطة إلى قصريانة[6]، ثم فرَّ إلى قلورية بجنوب إيطاليا، فتم قتله[7].

([1]) **رسلان**، عبد المنعم: **الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا**، دار تهامة للنشر، ط:1، جدة، المملكة العربية السعودية، 1401هـ/1980م، ص18.

([2]) **الحميري: الروض المعطار**، ص336. **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص170.

([3]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص105.

([4]) مدينة بجزيرة صقلية، إلى الجنوب من مدينة بلرم، بها وادي ترسو به السفن، وتتميز بشوارعها الواسعة وأسواقها العامرة بالتجارات. **الحموي: معجم البلدان**، ج:5، ص40.

([5]) اختار المسلمون النزول في مازر كونه يحقق لهم ميزتين: أولاهما: بعدها عن مركز الثقل البيزنطي، وثانيهما: يعد ساحلها أقرب سواحل صقلية إلى الأرض الإفريقية. **رسلان: الحضارة الإسلامية**، ص18.

([6]) مدينة كبيرة بجزيرة صقلية، تقع على سفح جبل، يشتمل سورها على زروع وبساتين وعيون ومياه. **الحموي: معجم البلدان**، ج:6، ص365.

([7]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص212.

ثم تقدموا نحو **سرقوسة** وفرضوا عليها حصاراً، بعد أن غدر بطاركة سرقوسة بهم، إذ سألوه الأمان مكراً وخديعة، واستغلوا ذلك في تحصين المدينة، فهل بقي الروم البيزنطيين مكتوفي الأيدي أمام تلك الأخطار التي واجهتهم لاسيما أن العرب نزلوا على معقل من أهم معاقلهم في تلك المرحلة؟

لاشك أن الروم البيزنطيين حاولوا المقاومة والوقوف في وجه العرب لثنيهم عن تحقيق هدفهم، فعملوا على تحصين مدينتهم، ووضعوا في حصنهم كل أموال الجزيرة، كما خفَّ أسطولٌ رومي من أجل نجدة المدينة المحاصرة، ومحاولة فك الحصار عليها، بعد أن تنبهت القسطنطينية لذلك الخطر[1]، فاستنجد القاضي أسد بن الفرات وطلب الإمداد، فجاءته من تونس في ثلاثمائة سفينة قدر عددها بعشرين ألف مقاتل، ولكن يبقى القدر أبعد أثراً وأقوى عزماً في تسيير الأحداث، إذ ظهرت العوامل البيئية بأثرها السلبي على الجيش الإسلامي المحاصر، وانتشر وباء قضى على عدد كبير من الجيش، من ضمنهم القاضي أسد بن الفرات قائد الحملة، فدفن في موضع حصاره لسرقوسة، وقيل توفي في شعبان 213هـ/828م أو رجب أو في ربيع الآخر، بعد أن وطد الحكم العربي الإسلامي في بعض نواحيها[2].

ازداد وضع المسلمين حرجاً لاسيما مع نفاذ الأقوات، واستشهاد أسد بن الفرات، وسماعهم بوصول إمدادات وحشود رومية بيزنطية، كما قامت قوة بحرية من تسكانيا بالاتفاق مع بيزنطة وهاجمت ثغر **بونة** في شمال إفريقية، مما زاد الضغط على المسلمين، فعمد المسلمون إلى رفع الحصار ومحاولة العودة بالسفن إلى إفريقية لكن الحشود الرومية البيزنطية بالتعاون مع أسطول البنادقة منعتهم من ذلك، وأمام الحال اليائس قرروا توطين أنفسهم على القتال حتى الموت[3].

أقدم المسلمون على حرق مراكبهم تأكيداً على الاستماتة في القتال والدفاع، ومع ذلك لا يمكن الجزم بصحة ذلك، إذ لا يمكن للمسلمين أن يقوموا بقطع خطوط مواصلاتهم،

([1]) **فازيليف: العرب والروم**، ص73-74.

([2]) **البكري: المسالك والممالك**، ج:2، ص54.

([3]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص212.

لاسيما أن سفنهم هي وسيلة الاتصال الوحيدة مع القواعد في الشمال الإفريقي، وما قيل من إحراق السفن مرده أنه من طرق الوقاية من الوباء الذي انتشر بين صفوفهم، كما حاولوا الاستيلاء على بعض الحصون (حصن ميناو وجرجنت)[1]، وكان لهذان الفتحان أثراً كبيراً، إذ ارتفعت معنويات الجيش الإسلامي، وتطلعوا إلى مزيد من الانتصارات[2].

في تلك الأثناء انفصلت عن الجيش جماعة من المسلمين مع فيمي وحاصرت **قصريانة**[3]، فحاول أهالي المدينة بذل الطاعة له مكراً وخديعة، وطلبوا منه أن يمهلهم إلى اليوم التالي لينظروا فيما يصالحون عليه، فاستجاب لمطلبهم، وفي صباح اليوم التالي جاءهم في نفر قليل من أصحابه، وما إن وصل حتى خرجوا يقدمون له الطاعة ويقبلون الأرض بين يديه، وكانوا دفنوا سلاحاً، فلما اقترب منهم أخرجوا السلاح، ووثبوا عليه وقتلوه، كما أن الحكومة البيزنطية أرسلت مدداً إلى الجزيرة بقيادة **ثيودوت** (Theodote)، وبوصوله بدأت مرحلة جديدة من المواجهات مع المسلمين، إذ اشتبك مع المسلمين تحت أسوار قصريانة، لكنه هزم وتحصن داخل المدينة فحاصرها المسلمون، وخلال الحصار في أواخر 213هـ/828م توفي محمد بن أبي الجواري الذي ولاه الجند بعد وفاة أسد بن الفرات[4].

لم تثن وفاة محمد بن أبي الجواري المسلمين عن عزيمتهم، فقام المسلمون بتولية زهير بن برغوث وقيل ابن غوث (214-216هـ/829-831م) فنشبت بينه وبين ثيودوت معارك عنيفة انتهت بهزيمة المسلمين، لأن ثيودوت نظم نفسه وجيشه أثناء تحصنه في المدينة، واستطاع الثأر لنفسه بالهجوم على سرية من المسلمين خرجت بحثاً عن المؤن،

([1]) يوجد هذا الحصن على بعد 24 ميلاً في اتجاه الجنوب الغربي من ساحل سرقوسة. **نوح: البحرية الإسلامية**، ص146.

([2]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص109.

([3]) اسم لمدينة كبيرة بجزيرة صقلية، على سفح جبل. **الحموي: معجم البلدان**، مج4، ص365.

([4]) **أحمد**، عزيز: **تاريخ صقلية الإسلامية**، تقديم: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1980م، ص16.

ولما قام المسلمون بالهجوم من أجل الثأر، هزمهم الروم البيزنطيين، وقتلوا منهم نحو ألف رجل[1]، وازداد موقف المسلمين حراجة بفرارهم إلى **ميناو** إذ تم حصارهم من قبل الروم البيزنطيين، وقلت الأقوات عنهم، وانقطعت المؤن عنهم حتى اضطروا إلى أكل الدواب، وأشرفوا على الهلاك، وذلك بعد المحاولة الفاشلة في الهجوم على الروم البيزنطيين ومفاجأتهم، فقام المسلمون في **جرجنت** بمحاولة نصرة إخوانهم المحاصرين في ميناو، إذ خربوا الحصن واتجهوا إلى مازر، لكن تعذر عليهم هذا الأمر، وكان الهلاك الحتمي مصير المسلمين المحاصَرَين في ميناو، لولا أن الأقدار هيأت وصول أسطول أندلسي بلغ ثلاثمائة مركب[2]، حاملاً أعداداً كبيرة من غزاة البحر الأندلسيين قدموا بقصد الجهاد البحري والغزو[3]. ويتبين دور الأسطول الأندلسي في فتح صقلية من خلال ما حصل من أحداث سهلت عملية الفتح؛ فلما بلغ المحاصَرين نبأ وصول الأندلسيين سارعوا بإرسال طلب النجدة، وكان موقف الأندلسيين إيجابي إذ وافقوا على إنقاذ جيش الأغالبة وقواتهم البحرية من المأزق الذي كاد أن ينهي وجودهم على أرض الجزيرة، بعد أن اشترطوا عليهم أن يكون القائد اصبغ بن وكيل المعروف "بفرغلوش"، وأقبل الأندلسيون على فك الحصار عن المسلمين المحاصرين في **ميناو**، وانتصروا على ثيودوت سنة 215هـ/830م، وهزموه هزيمة نكراء ففرَّ إلى قصريانة، ثم توجهوا إلى **بلرم** على الشاطئ الغربي لصقلية، وفرضوا عليها حصاراً، ولما لم تصل إليها مساعدات بحرية بيزنطية، اضطر صاحبها البيزنطي إلى طلب الأمان، فدخلها المسلمون[4].

وبالتالي استولى الأغالبة على "**بلرم**" سنة 216هـ/831م بعد حصار دام عام[5]، فأصبح للأسطول الأغلبي قاعدة بحرية في الجزيرة تمكنوا من خلالها استكمال فرض السيطرة على الجزيرة بلداً تلو الآخر، على الرغم من انتشار الوباء الذي راح ضحيته

([1]) **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص92.

([2]) لم يكن الأسطول أندلسياً فحسب، بل وصلت بعض السفن من إفريقية. **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص111.

([3]) **أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية**، ص16.

([4]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص212.

([5]) **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص93.

القائد الأندلسي اصبغ بن وكيل، وصارت الثغر الأكبر تقلع منه الأساطيل الإسلامية للإغارة على الشواطئ الإيطالية وباقي ممتلكات الجزيرة البيزنطية، كما أن فتحها سهل وصول الإمدادات إلى المسلمين في صقلية عن طريق مينائها البحري[1].

وبعد أن حدث خلاف على القيادة العامة للجيش بين الأندلسيين والأغالبة في جزيرة صقلية، تم الاتفاق على تولية عثمان بن قرهب، وهنا تم فتح بلرم للمرة الثانية سنة 216هـ/831م، مرد ذلك أن الروم البيزنطيين استغلوا فرصة الخلاف، وحاولوا التخلص من السيادة العربية الإسلامية عليهم، وانتهى دور الأسطول الأندلسي، فما كان مصيرهم؟

اختلفت المراجع حول مصيرهم؛ لعلهم قفلوا إلى الأندلس راجعين، أو أنهم عاشوا في جزيرة صقلية، بعد أن صالحوا الإفريقيين[2]، ومهما يكن من أمر فإن دورهم كبيراً جداً في فتح مدن صقلية خلال الأعوام 215-219هـ/830-835م، كما كان دورهم كبير في فتح إقريطش[3]، وفيما بعد توقفت المساعدات الأندلسية بسبب الهدنة بين الإمبراطور البيزنطي **تيوفل** وعبد الرحمن الأوسط سنة 225هـ/840م، إذ كانت تجمعهم العداوة للعباسيين الذين وقعت صقلية تحت أيديهم باسم الأغالبة[4].

وفي 220هـ/835م ولى زيادة الله بن إبراهيم الأغلبي أخاه أبا الأغلب **إبراهيم بن عبد الله** والياً على صقلية، فأدرك أن تجهيز أسطول مزود بالقذائف الحارقة هو الحل لمواصلة الإمدادات، والوقوف في وجه الروم البيزنطيين، وحدثت مواجهات بحرية على الساحل الذي كان بحوزة الروم، فانتصر بأسطوله على أسطول البيزنطيين، وظفر بعدد من سفن الروم وغنم ما فيها، بعد أن نجحت حراقاته في مطاردة حراقات البيزنطيين، كما بعث السرايا والأساطيل إلى الجزر المجاورة فاستولى على عدد من الحصون ومنها حصن تندارو سنة 221هـ/835م[5].

([1]) **الحميري: الروض المعطار**، ص102.

([2]) **أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية**، ص17.

([3]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص73.

([4]) **العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، ص257.

([5]) **أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية**، ص18.

ومما يجب ذكره أن استيلاء الأغالبة على قوصرة للمرة الثانية عام 221هـ/835م، زاد من أهمية القاعدة في جزيرة صقلية، وزال الخطر الذي هدد المواصلات بين صقلية وإفريقية لما كانت قوصرة في يد بيزنطة[1].

وتابع الأغالبة توجيه همهم للسيطرة على كامل الجزيرة، رغم محاولات الروم البيزنطيين إعادة السيطرة على المناطق التي خضعت للمسلمين، ففي سنة 233هـ/847م وصلت عشر شلنديات رومية إلى خليج مندلو غرب بلرم بثمانية أو عشرة أميال[2]، لكنها ضلت الطريق وغرق منها عشر شلنديات أثناء العودة إلى بلادها[3].

وفي سنة 235هـ/850م غزا المسلمون قصريانة، فغنموا المغانم الكثيرة، وبولاية **العباس بن الفضل بن جعفر** سنة 236-246/851-861م على صقلية، تشهد عملية الفتح العربي الإسلامي مرحلة جديدة، إذ وضحت السيطرة العربية الإسلامية على البحر المتوسط، كما تميزت بكثرة الغزوات الموجهة إلى أراضيها، حتى تمت السيطرة عليها[4].

4- فتح جزيرة مالطة:

البدايات الأولى لفتح جزيرة مالطة تزامنت مع محاولات الأغالبة فتح جزيرة صقلية، لاسيما أن أسطولهم كان في أوج الهمة والنشاط، ونشر الدين الإسلامي فكرة تلمع في خواطرهم، والتخلص من قواعد الروم البيزنطيين حلماً قضَّ مضجعهم.

وتعرف جزيرة مالطة ولواحقها بالأرخبيل المالطي، كونها أهم أجزاء هذا الأرخبيل، ومن لواحقها جزيرة جوتزو، وكمونة، وكومينوتو، وفلفولا، ونموشة[5]، وعدت هي وجزيرة

([1]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص213.

([2]) **الميل:** يساوي ثلاثة آلاف ذراع، والذراع ثلاثة أشبار، والشبر ست وثلاثون إصبعاً. **هنتس**، فالتر: **المكاييل والأوزان الإسلامية**، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، د.ت، ص95.

([3]) **ابن الأثير: الكامل في التاريخ**، ج:6، ص76.

([4]) **أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية**، ص19.

([5]) **أرسلان: تاريخ غزوات العرب**، ص284. **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص100.

صقلية من المعالم المهمة في التاريخ البحري العربي الإسلامي، ومفتاح حوض البحر الأبيض المتوسط الأوسط والغربي[1].

تعرضت جزيرة مالطة لعدد من الحملات العربية الإسلامية عليها قبل عام 184هـ/800م أي قبل عصر الأغالبة، إلا أن السيادة العربية الإسلامية لم تثبت، وتكرر غزوها فيما بعد، ففي سنة 209هـ/824م، في عهد زيادة الله بن إبراهيم الأول (201-223هـ/816-837) كان ثمة غزوة عربية إسلامية لجزيرة مالطة، كما حدثت غزوة أخرى سنة 221هـ/835م، إذ جهز أبو الأغلب **إبراهيم بن عبد الله** والي صقلية أسطولاً سيره نحو الجزيرة؛ فغنموا غنائم عظيمة، وفتحوا مدناً ومعاقل، وعادوا سالمين[2].

ذكر المستشرق الإيطالي **إيطوري روسي** الذي يعد من أعلم المستشرقين بأحوال مالطة أن العرب المسلمين نزلوا مالطة سنة 256هـ/869م، وأن أبا الأغلب ابراهيم غزا جزيرة صقلية عام 221هـ/835م، فمن غير المعقول أن يكون استولى على جزيرة صقلية وترك جزيرة مالطة الأقرب إلى إفريقية من صقلية؛ ومن ناحية التفكير السليم يكون الاستيلاء عليها وقع قبل عام الاستيلاء على جزيرة صقلية[3]. إذاً قدم دليلاً على أن احتلال الجزيرة كان قبل عام 256هـ/869م، ولكن المصادر والمراجع أجمعت على أن افتتاحها في سنة 256هـ/869م، وبرهان ذلك أن هذه الحملات كانت مجرد غارات لم تحقق هدفها في مد السيطرة العربية الإسلامية عليها بشكل نهائي، لاسيما الحملة التي قام بها أبو الأغلب إبراهيم سنة 221هـ/835م، بدليل ما قيل أنهم "عادوا سالمين"[4]، والمعلوم أن المسلمين استقروا في الجزيرة بعد فتحها، وامتزجوا مع السكان، وبالتالي فإن الجزيرة لم تكن فتحت بعد، فمتى كانت السيطرة العربية الإسلامية على الجزيرة؟

([1]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص121. **نوح: البحرية الإسلامية**، ص282.

([2]) **مؤنس**، حسين: **الإسلام في حوض البحر الأبيض إلى الحروب الصليبية**، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، مصر، مج:4، العدد:1، 1951م، ص113.

([3]) **أرسلان: تاريخ غزوات العرب**، ص303.

([4]) **الخربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط**، ص86.

كانت السيطرة عليها في عصر الأغالبة، وعلى وجه الخصوص سنة 256هـ/869م، في عهد الأمير الأغلبي أبي الغرانيق **محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب**[1] (250-261هـ/864-874م)، وما يهم أن يتم التعرف على رد الفعل البيزنطي اتجاه هذا الحدث، إذ حاول الروم البيزنطيين استرداد جزيرة مالطة من العرب المسلمين، ولم يقفوا مكتوفي الأيدي، وسيروا أسطولهم لحصارها واستردادها[2]، فهل تم لهم ذلك؟

بيان ذلك من خلال ما ذكره ابن الأثير في روايته عن حوادث سنة 256هـ/869م: "إن محمد بن خفاجة والي صقلية سير جيشاً لفتحها، وقد كان الروم البيزنطيين يحاصرونها، فلما بلغهم إقبال المسلمين إليها رحلوا عنها"[3]. إذاً فشل الروم البيزنطيين في استردادها، أما أرشيبالد لويس ذكر أن الاستيلاء عليها كان في سنة 257هـ/870م، كعمل انتقامي بعد أن فشل الأغالبة في الاستيلاء على سرقوسة بجزيرة صقلية[4]، وظلت مالطة خاضعة للسيطرة العربية الإسلامية نحو 220 سنة، كما عاملوا أهل مالطة بالتسامح واللين، وفُرضت عليهم ضرائب معتدلة، ونتيجة للمعاملة الحسنة لأهالي الجزيرة اعتنق غالبية أهلها الإسلام، وامتزجوا كثيراً بالمسلمين، حتى أصبحوا شعباً واحداً[5].

5- في بلاد أوروبا:

لم ينفك المسلمون عن متابعة الفتوح في صقلية حتى انتقلوا بفتوحاتهم وغزواتهم البحرية إلى القارة الأوربية وكانت إيطاليا بحكم موقعها القريب من جزيرة صقلية هي الهدف التالي، فقاموا بتوجيه غاراتهم البحرية إليها ساعدهم في ذلك أوضاعها الداخلية، وبيان ذلك فيما يلي:

([1]) لقب بالغرانيق، كونه مولعاً بالصيد، وروي أنه أنشأ قصراً لصيد الغرانيق أنفق فيه ثلاثين ألف دينار، فكني بهذه الكنية. **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص101.

([2]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص121.

([3]) **ابن الأثير: الكامل في التاريخ**، ج:6، ص145.

([4]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص217.

([5]) **أرسلان: تاريخ غزوات العرب**، ص290.

- أوضاع جنوب إيطاليا:

إن العرب المسلمين الذين دخلوا صقلية، لم يكونوا بعيدين عن متابعة الأوضاع في جنوب إيطاليا إذ استفادوا من أوضاع إيطاليا الداخلية المضطربة التي تجلت بعدة أمور أهمها:

- عجز الإمبراطورية البيزنطية عن تقديم مساعدات أمام هجمات العرب المسلمين على جنوب إيطاليا، إذ كانت سيادتها على تلك المناطق ضعفت إلى حد كبير[1].
- محاولة أباطرة بيزنطة فرض مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح على الشعب الإيطالي.
- محاولة فرض المذهب اللا أيقوني على الشعب الإيطالي مما أدى لضياع هيبة بيزنطة وسيادتها[2].
- انشغال بيزنطة بصراع بري وبحري مع الأمويين ومن ثم العباسيين إذ تعرضت لهجوم من جهة الشرق من قبل الخلافة العباسية في منطقة الثغور.
- خضوع معظم جنوب إيطاليا لأمراء بينفانت اللومبارديين الذين عرفت إمارتهم في الكتب العربية باسم المملكة اللومبردية[3].
- محاولة أمراء بينفانت التوسع وضم الجمهوريات الإيطالية الصغيرة المجاورة لإمارة بينفانت مثل: نابلي وجاتيا وسالرنو وكايو، وكانت تتبع الإمبراطورية البيزنطية ويسودها النظام الإقطاعي، فعملت هذه المقاطعات على الوقوف في وجه أمراء اللومبارد، وأمام عجز بيزنطة عن مواجهة غارات العرب المسلمين في جنوب إيطاليا اتجهت أنظار البابوية إلى الفرنجة لحمايتها[4].

([1]) **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص211.

([2]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص109.

([3]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص131.

([4]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص109. **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص211.

- النشاط البحري للأغالبة في جنوب إيطاليا:

من المدهش أن هناك تشابه في أحداث دخول الأغالبة لجنوب إيطاليا كما في دخولها لصقلية من حيث التاريخ وطريقة الدخول، وبرهان ذلك أن دخول الأغالبة إلى صقلية سنة 212هـ/827م، جاء بعد دعوة الثائر يوفيميوس (فيمي) للأغالبة[1]، وهنا أيضاً دخل الأغالبة إلى جنوب إيطاليا بعد أن تم الاستنجاد بهم من قبل دوق نابلي **أندريه**، بعد تسع سنوات من دخولهم صقلية أي في عام 221هـ/836م، وللتوضيح:

قام نزاع بين دوقية نابلي ودوقية بينفانت اللومباردية، واستمر إلى أن تم عقد هدنة بين الطرفين عام 220هـ/835م، وبموجب الهدنة أرغمت دوقية نابلي على دفع جزية سنوية للدوق اللومباردي **سيكاردوس**، فحاول أهالي نابلي الاستنجاد بالإمبراطور الفرنجي لويس التقي واستغاثوا به، لكنه لم يستجب لهم، ولما كانت جمهورية نابلي لا تتوقع من الدول المسيحية أي مساعدة، عندئذٍ لم يجد دوق نابلي طريقة سوى الاستنجاد المسلمين في صقلية[2]، لرفع الحصار اللومباردي عن نابلي، فتوجه بطلب المساعدة، ولم يكن المسلمين ليفوتوا الفرصة على أنفسهم في قبول مثل هذ العرض، فلبوا نداءه ووافقوا على التدخل، ونجحت القوة التي أرسلها **إبراهيم بن عبد الله** (220-236هـ/835-850م) والي صقلية، إذ أرسل أسطولاً لمساعدتهم عندما حاصرهم أمير بينفانت اللومباردي، وأرغموا الدوق اللومباردي على الانسحاب وعقد صلح جديد من شروطه إطلاق سراح أسرى نابلي عام 221هـ/836م، وبناءً عليه صار التحالف بين نابلي والأغالبة، واستمر ما يقارب خمسين عاماً، رغم احتجاج المسيحيين، أي حتى سنة 288هـ/900م، ومرده إلى ما كان بين المنطقتين من صلات تجارية رغم اعتراض بيزنطة على ذلك، ومهما يكن من أمر هذا التحالف فإنه ذو أثر كبير بالنسبة لعرب صقلية، إذ أضعف قوة أسطول بيزنطة البحرية في مياه البحر التيراني[3].

([1]) راجع فقرة: **مقدمات فتح صقلية**.

([2]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص131.

([3]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص213.

وفي سنة 222هـ/836م، احتل المسلمون **برنديزي**[1]، بعد أن سقطت العاصمة بلرم في أيديهم، فأحرقوها وعادوا إلى صقلية كونهم سمعوا بأخبار إعداد حملة لمواجهتهم، وتكرر غزوهم عليها عام 224هـ/838م[2]، وكانوا من عرب كريت بمساعدة عرب صقلية، فقام أسطول البندقية بمحاولة الدفاع عن الإقليم في ستين قطعة حربية، وكانت المحاولة كالمستعين بالرمضاء من النار، إذ عانى أهوالاً قرب كروتوني على خليج تارنت، وتعرض لهزيمة ساحقة من قبل الأسطول العربي الإسلامي فحطموه، واستولى المسلمون على برنديزي سنة 224هـ/838م، واستمرت سيادتهم عليها ثلاثون عاماً حتى 254هـ/868م[3].

وهناك اعتبارات سياسية دفعتهم إلى زيادة التدخل بجنوب إيطاليا، كون العمليات العسكرية ضد البيزنطيين في صقلية استلزمت ضرب معاقلهم في تلك المناطق، وبصفة خاصة أسطول البندقية الذي هدد شمال صقلية، وزاد من ذلك أنه في 225هـ/839م شهدت الأوضاع في جنوب إيطاليا اضطراباً كبيراً مرده لوفاة الأمير اللومباردي سيكاردوس، وانقسام مملكة لومبارديا إلى إمارتين متصارعتين هما بينفانت وسالرن[4]، مما شجع المسلمين الأغالبة في صقلية على مهاجمة جنوب إيطاليا ثانيةً؛ فهاجم المسلمون **قلورية** في تلك السنة وخربوا إحدى مدنها- كايوا- بعد أن التقى الأسطول العربي الإسلامي مع الأسطول البيزنطي، وعاد الأسطول البيزنطي إلى القسطنطينية منهزماً، وفي ذلك قال ابن الأثير: "فسار أسطول المسلمين إلى قلورية ففتحها، ولقوا أسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال، فعاد الأسطول إلى القسطنطينية مهزوماً فكان فتحاً عظيماً.."[5]. واستمرت حملات العرب المسلمين على قلورية حتى سنة

(1) مدينة إيطالية جنوب الساحل الجنوبي لإيطاليا المطل على بحر الأدرياتيك. **الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي**، ج1، ص1441.

(2) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص214. **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص213.

(3) **الخربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط**، ص58.

(4) **اسماعيل: الأغالبة**، ص170. **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص214.

(5) **ابن الأثير: الكامل في التاريخ**، ج:6، ص49.

275هـ/888م، عندما انتصر الأسطول العربي الإسلامي على الأسطول البيزنطي بعد وفاة الإمبراطور باسيل الأول المقدوني (273هـ/886م)[1].

وأغاروا على شاطئ **دلماشيا** (دلماسيا)؛ فنهبوا وأحرقوا مدينة أوسيرو في جزيرة كرسو سنة 226هـ/840م[2]، ثم اجتازوا البحر فنهبوا وأسروا أناساً من أنكونا، وقاموا بمواصلة الزحف حتى وصلوا إلى مصب نهر ألبو، فأغاروا على **باري** لكنهم لم يستولوا عليها، وأثناء عودتهم إلى صقلية استولوا على عدد من سفن البندقية التجارية العائدة من صقلية، فكان النشاط البحري في أوجه في تلك المرحلة، إذ جدد الأغالبة نشاطهم البحري بغزو خليج كورنيرو عام 227هـ/841م، كما استطاع المسلمون تأسيس إمارة عربية إسلامية في مدينة **باري**[3] سنة 227هـ/841م متعاونين مع أساطيل كانت تعمل قرب الشاطئ، واستمرت ثلاثين عاماً، بعد أن نشب الخلاف بين رجلين متصارعين على إمارة (بينفانت) وهما رادلكيس، وسيكنولف ومحاولة كل منهما الاستنجاد بفريق من المسلمين، إذ استنجد رادلكيس بجنود مرتزقة من مسلمي صقلية وشمال إفريقية، بينما استنجد سيكنولف بعدد من مسلمي إقريطش دون جدوى[4].

وكانت النتيجة سقوط **باري** بعد حصارها في نفس العام 227هـ/841م على يد خلفون البربري[5]، واستمرت حتى قدم **لويس الثاني** ملك فرنسا الكارولنجي إلى إيطاليا وفتح سنة سنة 257هـ/871م مدينة باري، وقتل كثير من المسلمين فيها، فانتهى الحكم العربي الإسلامي فيها بعد أن استمر مدة تسع وعشرين عاماً[6].

([1]) **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص214.

([2]) **أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية**، ص25. **الخربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط**، ص92.

([3]) مرفأ إيطالي على بحر الأدرياتيك. **الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي**، ج:1، ص1439.

([4]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص214–215. **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص212.

([5]) افتتحت باري على يد خلفون البربري في أول خلافة المتوكل على الله العباسي، وتولى بعده المفرج بن سلام الذي افتتح أربعة وعشرين حصناً واستولى عليها، وبنى مسجداً جامعاً فيها، وخلفه سوران. **اسماعيل: الأغالبة**، ص172. **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص216.

([6]) **الخربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط**، ص60.

وفي سنة 229هـ/843م ساعد دوق نابلي الأغالبة أثناء حصارهم مدينة **مسينا** في صقلية، وفيما بعد نقض التحالف بين الأغالبة ونابلي، ومرد ذلك أن نابلي لم تعد تتعرض للتهديد اللومباردي الذي عانت منه فيما قبل، ولأن الأغالبة الذين استغلوا فرصة استنجادها بهم استفحل نشاطهم، وعملوا على اتخاذ سواحلها قواعد لأساطيلهم فأصبحت تهدد أمنها وتجارتها، وظهرت نتائج ذلك بعقد **سرجيوس** دوق نابلي تحالفاً مع أعداء الأغالبة في المدن البحرية المجاورة: أمالفي وجاتيا وترنتو، لمواجهة نشاط الأغالبة[1]، فهل حقق الهدف المنشود في إعاقة نشاط الأغالبة البحري؟

عندما تذكر المصادر والمراجع المتخصصة بأن المتحالفين أحرزوا نصراً على القوة البحرية الأغلبية قرب نابلي في جزيرة بونزا، وفي ليكوزيا – إحدى رؤوس خليج سالرنو، فهذا يعني أنهم حققوا هدفهم، ولكنه لم يكن بشكل نهائي، ولم يوقفوا النشاط الأغلبي بشكل كامل، مرد ذلك لقوة الأغالبة الذين زادوا من غاراتهم حدة وعنفاً وكثرة، وتحولوا نحو أملاك البابوية، حتى أنهم اجتاحوا مدينة آرل ونهبوها، واستقروا في جزيرة إيشيا، كما تم فتح أربعة وعشرين حصناً[2].

وأمام هذا الحال وازدياد نشاط الأغالبة كان على الإمبراطور أن يعمل لصد الغارات والدفاع عن ممتلكاته في إيطاليا بعد أن شرع الأغالبة في الاستيلاء عليها، والدليل أن الأغالبة سيروا أسطولهم في سنة 232هـ/846م، خرجت من مرسى سوسة الحربي في ثلاثة وسبعين سفينة قاصدين روما نفسها بعد أن تم الاستيلاء على مسينا في صقلية، رداً على الغارة التي قام بها سكان أواسط البلاد الإيطالية ضد الساحل التونسي، وباغت الأغالبة في هذه الحملة مدينة **أوستي** على نهر التيبر، ووصلوا إلى أسوار **روما** نفسها عام 233هـ/847م[3]، إذ كانت غارة جريئة على نطاق واسع، فهل تحقق هدف الأغالبة؟

([1]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص216. **اسماعيل: الأغالبة**، ص172.

([2]) **فازيليف: العرب والروم**، ص184. **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص215.

([3]) **أرسلان: تاريخ غزوات العرب**، ص136. **مارسيه: بلاد المغرب وعلاقتها ببلاد المشرق**، ص77.

لا يمكن القول أن الفشل هو مصير الحملة بمجرد أنهم لم يستطيعوا فتح روما وعادوا إلى إفريقية، لاسيما أنهم هاجموا الجانب الغربي الذي لم يكن محصناً، واستولوا على كنوز بعض الكنائس هناك، إذ نهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس وغزوا جنوة أيضاً، وذكر فازيليف أن العرب المسلمين "ظلوا يذكرون الغنائم التي أخذوها في هجومهم على روما"[1]، ولكن انسحابهم إلى إفريقية مرده لمجيء قيصر ابن الدوق سرجيوس على رأس أسطول كبير، فآثروا الانسحاب، أو أنهم لم يفكروا جدياً في احتلال روما، ثم حول العرب المسلمين نشاطهم نحو الجنوب. وعلى إثر تفاقم الخطر الأغلبي بتخريب بينفانت وحصار جايتا حاول الإمبراطور مناجزة الأغالبة وصدهم في عدة معارك، فحلت به الهزيمة وضاعت عبثاً جهوده وذهبت أدراج الرياح في إقصاء الأغالبة عن باري وتارنت[2]، وهنا تم تجديد علاقات الصداقة واستأنفت علاقات الصداقة التي كانت قائمة بين المسلمين ومدن حلف كمبانيا بعد أن استطاعت وضع حدٍ لتوغل المسلمين في جنوب إيطاليا، واستمرت علاقات الصداقة لمدة عشرين عاماً أو أكثر، وبالتالي تمكن الأغالبة من الهجوم على سواحل إيطاليا الشرقية والاستيلاء على **آرل** بفرنسا عام 235هـ/849م، وحشدوا أسطولاً ضخماً في جزيرة سردانية من أجل غزو **روما** للمرة الثالثة، وعقدوا العزم وأبحروا باتجاه مدينة أوستي، لكنهم لم يستطيعوا الوصول، لأن مصب نهر التيبر كان محصن[3]، ولسبب آخر أشار إليه فازيليف:

"أن البابا ليو الرابع أسرع بطلب عون بحري لما علم بتحرك الأغالبة من سردينية، وعقد تحالفاً مع أمالفي وجاتيا ونابلي في قصر اللاتيران، فأرسلوا أسطولاً لحماية الشواطئ البابوية"[4]، لكن المناخ كان ذو أثر سلبي على المسلمين الأغالبة؛ إذ تعرضوا لعاصفة بحرية حطمت الأسطول الأغلبي، وأنهت محاولته، ووقع في أسر المتحالفين عدداً كبيراً من المسلمين، اقتيدوا إلى رومة، ولم يعد هناك أي ضرورة للمساعدة[5]. وهنا

([1]) **فازيليف: العرب والروم**، ص186.

([2]) **أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية**، ص26. **نوح: البحرية الإسلامية**، ص257.

([3]) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص216.

([4]) **فازيليف: العرب والروم**، ص186.

([5]) **المهايني: تاريخ الخلافة الأموية والعباسية**، ص232.

لم يجد البابا مناصاً من أن يعهد إلى **لويس الثاني** ملك إيطاليا بتبني الدفاع عن المسيحية في الغرب، كون نشاط الأغالبة البحري هدد جنوب إيطاليا كلها، لكن لويس الثاني انشغل بمشاكله في شمال إيطاليا، وهذا الأمر أتاح للأغالبة تشديد قبضتهم، وتمكن العباس بن الفضل من الاستقرار بجنوب إيطاليا، وفشل لويس الثاني في استرداد **باري** من المسلمين، مرد ذلك لعدم امتلاكه أسطولاً بحرياً[1]، وسيطرة المسلمين على المسالك البحرية سنة 238هـ/852م بعد أن تم تتويجه إمبراطوراً[2]، وخلال الأعوام 233هـ/847م وحتى 240هـ/854م تقدمت فتوحات الأغالبة في الشواطئ الإيطالية ففتحت باتية وقطانية وبشيرة[3].

وقيل في وصف فتوح العرب في صقلية: "إن صقلية دانت للعرب بعد أن كانت تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية، وسقطت بالرمو سنة 831م وكان النصر حليف العرب المسلمين، وامتد سلطانها عام 846م إلى روما نفسها، كما سقطت قبلها تارنت 840م، وتم امتلاك العرب لولايات جنوب إيطاليا، واستسلمت نابلي وسالرنو، .. وبهذا تمت فتوح العرب في هذه الجهات"[4]. وفي 251هـ/865م تقلد خفاجة بن أبي سفيان الولاية على إيطاليا وخرج غازياً لفتح جنوة، ففتحها، وتقدم إلى جبال الألب واستمر فاتحاً إلى نهاية سنة 252هـ/866م[5].

وفي سنة 253هـ/867م حاصر الإمبراطور الفرنجي لويس الثاني مونت كاسينو[6]، بعد أن جند جيشاً من الإيطاليين واستطاع هزيمة الأغالبة في عدة معارك، لكن أمير باري الأغلبي انتصر على جموع الإيطاليين، ولكن تغيرت الأحوال في نفس السنة، كون البندقية والقسطنطينية استطاعتا العمل معاً في البحار الإيطالية، لأن البابا هادريان

(1) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص218. **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية**، ص134.
(2) **الخربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط**، ص59.
(3) **أرسلان: تاريخ غزوات العرب**، ص284.
(4) **الخربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط**، ص86.
(5) **أرسلان: تاريخ غزوات العرب**، ص284.
(6) تقع في إيطاليا بين روما ونابلي. **الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي**، ج:1، ص1501.

الثاني –الذي خلف نيقولا الأول 253هـ/867م– أدرك عدم استطاعته إقصاء الأغالبة دون أسطول بحري قوي[1]؛ فناشد البيزنطيين بالمساعدة البحرية، واستجاب له الإمبراطور **باسيل الأول** (253–273هـ/867–886م) ، وهنا أرسل الإمبراطور حملة بحرية من مائة سفينة تمكنت من فك الحصار على مدينة **راجوزة**، وتحولوا إلى إيطاليا بعد ذلك إذ ظهر أمام **باري** أسطول كبير اشتمل على سفن من راجوزة ودلماشيا، وكانت المدينة محاصرة من جهة البر بقوات لويس الثاني، بالإضافة إلى الأسطول البحري البيزنطي فاكتمل حصار المدينة براً وبحراً، وأمام هذا الحال سقطت مدينة باري 258هـ/871م في يد الملك الكارولنجي، وبعد أن سقطت باري شن الأغالبة غاراتهم البحرية على السواحل **الغربية** لشبه الجزيرة الإيطالية، وتقدموا حتى كابوا، وظلوا حتى عام 262هـ/875م، ساعدهم في ذلك مدن الساحل الإيطالي التجارية، ولم تنجح محاولات الإمبراطورية البيزنطية لوقف الهجوم[2].

وبتولي **شارل الأصلع** (262–264هـ/875–877م) بعد وفاة لويس الثاني، تخلى عن أمور إيطاليا، وبالتالي ازداد نفوذ الأغالبة فيها، كما استعادت بيزنطة سيادتها في جنوب إيطاليا، وعبثاً حاول البابا حنا الثامن الاستعانة بالإمبراطور ومدن أمالفي وجايتا ونابلي، كون الإمبراطور لم يكن لديه أسطول يبعث به[3]، وانشغال القسطنطينية بأمر صقلية وبلاد المشرق، وحنقها على البابوية لأنها اتجهت إلى الفرنجة، كما أن مدن حلف كمبانيا لم تكن راغبة في معاداة المسلمين، فلم يجد بداً من مسالمة الأغالبة ودفع إتاوة بلغت خمسة وعشرين ألف قطعة فضية، كما أقام الأغالبة قاعدة لهم في مونت جارليانو 268هـ/882م، وأصبحت مركزاً لتهديد أملاك البابوية، واستمرت ما يقرب أربعين عاماً[4].

([1]) **فازيليف: العرب والروم**، ص231.

([2]) **إسماعيل: الأغالبة**، ص177. **نوح: البحرية الإسلامية**، ص265.

([3]) **الخربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط**، ص61.

([4]) **طرخان: المسلمون في أوروبا**، ص218. **نوح: البحرية الإسلامية**، ص269.

وبدأ النفوذ البيزنطي يزداد نشاطاً بعد أن قاموا بعمليات بحرية ناجحة في صقلية، كما أقاموا أسطولاً دائماً عند ثرمة الواقعة شرقي بلرم (طبرمين) سنة 266هـ/880م، وفي سنة 269هـ/883م سقطت **تارنت** بيد البيزنطيين بعد أن تم حصارها براً وبحراً، وعادت **نابلي** إلى ولائها القديم لبيزنطة بعد أن انصرفت عنه لمدة طويلة 270هـ/884م[1].

وفي سنة 271هـ/885م أنزلت بيزنطة جيشاً بقيادة نقفور فوقاس، تمكن من تدعيم نفوذها في جنوب إيطاليا، وأنشأ ثغرين بحريين سنة 272هـ/886م، كما انتظمت قلورية وأبوليا في أجناد، لكن هذا الأمر لم يثن المسلمين الذين استغلوا موت باسيل الأول المقدوني عام 272هـ/886م وقاموا بغزو قلورية سنة 275هـ/888م، وهنا أبحرت أساطيل الإمبراطورية غرباً إلى ريو، والتقت مع بحرية كبيرة للمسلمين بالقرب من ميلازو، كانت النتيجة هزيمة البيزنطيين وتحطيم سفنهم سنة 275هـ/889، مما مكن من سيادة المسلمين البحرية في إيطاليا وجانب من فرنسة[2].

وعلى الرغم من انتصارات الأغالبة سنة 288هـ/901م إذ غزوا **قلورية** وأغاروا على **مسينا** سنة 289هـ/901م وملكوا **ريو**[3]، كما أنهم أغاروا سنة 290هـ/902م بقيادة إبراهيم بن أحمد على المناطق التابعة لبيزنطة في صقلية مثل **كالابريا** بعد أن دانت لهم صقلية بشكل كامل على إثر سقوط طبرمين. إلا أن أعمالهم اتخذت طابع الغزوات والمغامرات إلى حد كبير، وكان لاضطراب الأوضاع بعد موت إبراهيم بن أحمد المفاجئ في كوسنزا (كُسَنتة) وعودة الأسطول إلى صقلية، وانشغال زيادة الله الثالث (290-296هـ/902-908م) بمقاومة الخطر الشيعي، أثراً في توقف الفتوحات في إيطاليا، وبالتالي أنقذت إيطاليا الجنوبية من غزو محتم شرع فيه الأمير الأغلبي، وبسقوط الدولة الأغلبية على يد الفاطميين تخلصت إيطاليا من الخطر الأغلبي[4].

(1) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص220. **أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية**، ص29.
(2) **أرسلان: تاريخ غزوات العرب**، ص285.
(3) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص221.
(4) **أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية**، ص29. **إسماعيل: الأغالبة**، ص177.

وعلى كل حال، إذا كانت العلاقات الودية سادت زمناً بين الأغالبة في إفريقية وصقلية وبين الكارولنجيين في إيطاليا وفرنسا على عهد شارلمان عندما أصدر أمره إلى وفدٍ من أجل الذهاب إلى إفريقية وأن يلتمسوا من إبراهيم الأغلبي الإذن بنقل رفات القديس (فبريانس) المدفون في قرطاجنة وغيره من القديسين، فأذن له ابراهيم فيما طلبوه[1]؛ إلا أن الطابع العدائي ظل غالباً عليها، لاسيما بعد موت شارلمان، وأهم من هذا أنه رغم فشل نابلي وأمالفي في التخلص من الإمارة العربية الإسلامية في مونت جارليانو عام 296هـ/908م، إلا أن النجاح حالفهم عام 304هـ/915م من خلال تكوين قوة بحرية مشتركة من بيزنطة وإيطاليا ومن نابلي وجايتا، وقاموا بغارة على معاقل المسلمين، وبهذا تحررت البلاد الإيطالية من مضايقات المسلمين[2].

6- خاتمة:

ومما سبق يتبين أن نجم الإسلام استمر في الصعود زمن الأغالبة، كونهم عززوا قوة العرب المسلمين البحرية، واستطاعوا تثبيت الأقدام العربية في الولايات الأوروبية، ودعموا جيشهم المحارب بالأساطيل البحرية المحاربة، حتى دان من كان في حوزتهم من النصارى بدين الإسلام، واستمر الحال طيلة قرن ونيف من الزمان إلى أن ظهرت الدولة الفاطمية التي قضت على دولة الأغالبة، وبالتالي فإن السياسة العربية الإسلامية تجاه أوروبا تحولت من الهجوم إلى الدفاع.

(1) **أرسلان: تاريخ غزوات العرب**، ص126.

(2) **لويس: القوى البحرية والتجارية**، ص222.

7-قائمة المصادر العربية الإسلامية:

1- **ابن الأثير**، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد (ت630هـ/1233م): **الكامل في التاريخ**، تح: أبي فداء عبد الله القاضي، الأجزاء:12، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م.

2- **البكري**، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت487هـ/1095م): **المسالك والممالك**، تح: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1424هـ/2003م،

3- **البكري**، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت487هـ/1095م): **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** (جزء من كتاب المسالك والممالك)، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، (د.ت).

4- **التميمي**، محمد بن أحمد بن تميم (ت333هـ/945م): **طبقات علماء أفريقية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ت)،

5- **الحموي**، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1229م): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، لبنان، 1397هـ/1977م.

6- **الحميري**، محمد عبد المنعم (ت900هـ/1496م): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط:2، بيروت، لبنان، 1404هـ/1984م.

7- **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت808هـ/1405م): **المقدمة**- من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (د.ت).

8- **الدباغ**، عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله (ت699هـ/1299م): **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تح: عبد المجيد الخيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.

9- **ابن عذاري**، أبي العباس أحمد بن محمد (ت712هـ/1313م): **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تح: بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط:1، تونس، 1434هـ/2013م.

8- قائمة المراجع العربية:

1- **إسماعيل**، محمود: **الأغالبة (184-296هـ) سياستهم الخارجية**، عين للدارسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط:3، مصر، 2000م.

2- **أحمد**، عزيز: **تاريخ صقلية الإسلامية**، تقديم: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1980م.

3- **أرسلان**، شكيب: **تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

4- **الحموي**، محمد ياسين: **تاريخ الأسطول العربي**، مطبعة الترقي، سوريا، دمشق، (د.ت)، 1364هـ/1945م.

5- **جلول**، ناجي: **الرباطات البحرية بأفريقية في العصر الوسيط**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1999م.

6- **رسلان**، عبد المنعم: **الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا**، دار تهامة للنشر، ط:1، جدة، المملكة العربية السعودية، 1401هـ/1980م.

7- **الزركلي**، خير الدين: **الأعلام**- قاموس تراجم، الأجزاء: 8، دار العلم للملايين، ط:15، بيروت، لبنان، (د.ت).

8- **سالم**، عبد العزيز وأحمد مختار العبادي: **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1969م.

9- **طرخان**، ابراهيم علي: **المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى**، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر، 1966م.

10-**طه**، عبد الواحد ذنون، وآخرون: **تاريخ المغرب العربي**، دار المدار، ط:1، بيروت، لبنان، 2004م.

11-**العدوي**، إبراهيم أحمد: **الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط**، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر، (د.ت).

12-**العزواي**، نبراس تركي هادي حسين: **التوغل العسكري الإسلامي في الغرب الأوروبي (ق2-5هـ/8-11م)**، كلية التربية، جامعة بغداد، العراق، 2014م.

13-**نوح**، فوزية محمد عبد الحميد: **البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة 184-296هـ/800-908م**، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، السعودية، 1405هـ/1985م.

14-**مارسيه**، جورج: **بلاد المغرب وعلاقتها ببلاد المشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، تر: محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف بالإسكندرية، الإسكندرية، مصر، (د.ت).

15-**مؤنس**، حسين: **الإسلام في حوض البحر الأبيض إلى الحروب الصليبية**، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، مصر، مج:4، العدد:1، 1951م.

16-**هنتس**، فالتر: **المكاييل والأوزان الإسلامية**، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، د.ت.

9- المصادر والمرجع المعربة:

1- زيدان، جرجي: **تاريخ التمدن الإسلامي**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت).

2- فازيليف: العرب والروم، تر: محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).